نحو أبناء مفكرين

طارق الجعبري

التفكير والذكاء والإبداع مفاتيح النجاح والتفوق، لكن دلالاتها تتداخل، وتختلط على الكثيرين ملامح كل مفردة منها، فالذكاء وحده لا يكفي لنجاح الإنسان، وليس بالضرورة أن الإنسان الذكي هو مفكر جيد، فهل فكرنا يوماً كيف نحن نفكر، وهل تعلم الواحد فينا كيف يفكر، أو اجتهدنا في تعليم أبنائنا مهارات التفكير، إن الكثير منا قد لا ينتبه إلى أهمية التفكير، وقد لا يلقي بالاً لموضوعات التفكير أو يألو جهداً في تعلم أبجدياته.

قد يرى كثير من الناس أن الحياة كفيلة بتعليم أبنائنا كيف يفكرون، وأن التعليم بجميع مجالاته هو من اختصاص المدارس كما يعتقدون، فإن مهارات التفكير يتم تعليمها لأولادنا في المدارس، وأنها -أي المدارس- هي المكان الصحيح لتعليم التفكير، في حين يعتقد البعض أيضاً أن مهارات التفكير لا يمكن تعليمها بشكل مباشر، وأن تعلم التفكير يتأتى للواحد فينا من خلال تجاربه وخبراته.

إن التفكير لا يعني الذكاء، والذكاء وحده لا يكفل النجاح، والممارسة وحدها لا تكفي، وخبرات الشخص وتجاربه قد لا تسعفه، فالحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أحق بها، فمثلاً إن الموظف الذي يطبع على الكمبيوتر عدداً من الساعات يومياً، مستخدماً اثنين من أصابعه، فلو ضاعف عدد ساعات الطباعة فسيبقى يطبع بإصبعين، ومهما حاول زيادة سرعته من خلال التدريب والممارسة، فإنه لن يستطيع اللحاق بمن يطبعون بطريقة اللمس مستخدمين أصابعهم العشرة.

والخلط كبير بين المعلومات والتفكير، فالمعلومات مهمة، ويسهل تعليمها واختبارها، ولهذا السبب نجد معظم نظم التعليم في بلادنا تركز عليها، وليس التفكير بديلاً عن المعلومات، بل هما متكاملان متلازمان، قد نستطيع في بعض المجالات أن نحصل على معلومات كاملة وفي هذه المجالات يصبح العمل شيئاً سهلاً روتينياً، ولو حصلت على معلومات وافية عن أي عمل، فإننا نحتاج إلى التفكير لنستكمل دور المعلومات الناقصة، كما أننا نحتاج عادة إلى التفكير لنغربل الكم الهائل من المعلومات لنختار ونقرر، وعندما نتعامل مع المستقبل، فإننا أيضاً نحتاج إلى التفكير، لأنه من المستحيل أن تتوفر لنا معلومات كاملة عن المستقبل. ولهذا، فإن المعلومات وحدها لا تكفي. ونستغرب هنا من أنظمتنا التعليمية في تشبثها بأدنى مستويات التفكير حسب هرم «بلوم»؛ أي مستوى الحفظ والاستذكار، في حين لا تكاد تجد اهتماماً وعناية بمستويات التفكير العليا كالتحليل والتركيب والتقويم والتفكير الإبداعي الذي يقود إلى الإبداع، والذي به -أي الإبداع- قامت الحضارات وتسيدت عالمنا حضارة الغرب به اليوم.

إن الخلط بين الذكاء والتفكير وتداخل المفهومين في بعضهما البعض، أدى إلى نتيجتين مؤسفتين؛ أولاهما أن الطلاب الأذكياء لا يحتاجون إلى مساعدة، أو إلى تعلم مهارات التفكير فهم أذكياء، وثانيتهما أن الطلاب غير الأذكياء لن تنفع معهم المساعدة في تعلم مهارات التفكير، لأنهم يوصفون عادة بالغباء. إن العلاقة بين الذكاء

والتفكير تشبه العلاقة بين السيارة وسائقها، فالسيارة القوية يمكن أن تنقاد بطريقة سيئة والسيارة العادية يمكن أن تنقاد بطريقة فعالة، فقوة السيارات هي الإمكانات، تماماً مثلما هو الذكاء بالنسبة للعقل، فقد يكون الذكاء موجوداً وما لم يستخدم بمهارة فهو وعدمه سيان، فالتفكير هو مهارة التشغيل والعمل التي يتفاعل في بوتقتها كل من الذكاء والخبرة.

إن التدليل على أهمية تعليم التفكير وسرد الأدلة الدينية والدنيوية تعجز مقالة كهذه تضمينها وحصرها، والأدلة على أهمية التفكير وشواهد الدين والدنيا في الحث عليه موجودة بين أيدينا وأمام ناظرينا، لكن المهم هو الانتباه إلى هذه الأهمية والعزم على امتلاك مفاتيح الإرادة والوعي نحوها، فالتفكير مهارة يومية أساسية ونستخدمها في كل الأوقات، والسؤال هنا كيف نعلم أبناءنا التفكير، وكيف نستطيع أن نحيل التفكير إلى هواية ورياضة لأبنائنا، فالتفكير الخلاق واللعب وجهان لعملة واحدة.

إن المشاهدة أو القراءة عن التنس لا يمكن أن تجعلك لاعب تنس، وكذلك التفكير، إذ لا بد من التدريب على التفكير، ولا بد من ممارسة مهارات التفكير وتعليمها لأبنائنا كي يصبحوا أطفالاً مفكرين، وهنا تظهر أندية التفكير وإستراتيجيات التفكير الإبداعي بأنواعه المختلفة، كالقبعات الست، والعصف الذهني، ولعبة الأدوار، والبدائل والاحتمالات، واعتبار جميع العوامل، وغيرها كثير من ألعاب التفكير وتدريباته التي تمكن أبناءنا من ممارسة مهارة التفكير وإتقانها. لكن السؤال: من يهتم أو ينشئ أندية كهذه أو يشرف على تدريبات كهذه؟ وهل تأخذ مدارسنا على عاتقها التفكير وتعليمه؟ وهل الأمر لحكوماتنا، أو لمؤسسات المجتمع المدني أم هو مسؤولية الأسرة بالأساس؟ إن الأمر أكبر من مرسوم حكومي أو اجتهاد مؤسسة أو حرص أمهات وآباء، إنها مسؤولية الجميع نحو نهضة فكرية في التفكير، وعودة إلى حضارة أمتنا التي أطلقت عنان العقول وزرعت التفكير حقولاً.

طارق الجعبري
مدير التعليم والتخطيط في جمعية الشبان المسلمين – الخليل

الهامش:

كتاب «علم ابنك كيف يفكر» (ادوارد دي بونو). عن موقع: http://www.edara.com/ (تاريخ الدخول 15/ 3/ 2009).

من ورشة عمل نظمها المركز ضمن مشروع الطفولة المبكرة والثقافة العلمية في قاعة جمعية الهلال الأحمر في البيرة العام الماضي.